الرواية فى السعودية

الثورة الناعمة فى بنات الرياض

من اللافت للنظر تنامى الاهتمام بالأدب السعودى عامة، والأدب النسائى فيه خاصة. وإن كان هذا – ربما – ينبع من غريزة الفضول والتلصص على عالم مسكوت عنه، أو عالم يطل برأسه كمولود يخرج للحياة، انطلاقًا من مكبوتات الإنسان العربى المكبوت فى كل عناصر حياته، إلا أنها فى النهاية ظاهرة تستحق الدراسة، وتستدعى التأمل.

ويأتى على رأس هذه الأعمال رواية حظيت بالكثير من اهتمام القراء – ولا أقول النقاد - وهذا هو ما يدعونى لتسميتها بغريزة الفضول والتلصص – رواية "بنات الرياض" للمبدعة رجاء صانع، وبغض النظر عما يثار حولها من تناول ينصب بالدرجة الأولى على التناول الأخلاقى والتقاليد المجتمعية، التى يحاربها العمل أساسًا، فإن تناولنا سوف يكون على العمل من حيث هو إبداع وعلاقته بالتغيرات المجتمعية فى وطننا العربى، ومن حيث هذا العمل يمثل أحد المؤشرات الأساسية فى مدار البحث، فى منطقة أساسية منه، فهل أشبعت فضول المتطفلين، أم أرضت قناعة المتخصصين؟ ذلك هو السؤال.

توارب الرواية نافذة عالم المرأة السعودية، لتتسرب بعض أبخرة عما يدور وراء الحجاب – أو إن شئنا قلنا النقاب – لا للفضح، حيث لم يتجاوز العمل خطوط ما يمكن اعتباره فضائحيًا، وإنما ظلت عند حدود الثورة على ما تصورته الكاتبة قهرًا لكائن

إنسانى يسعى – ومن حقه – لحقه فى الحياة، الحياة الحرة، الحياة الكريمة، الحياة التى تتفق مع ما يدور فى العالم من حولها، بحثًا عن مكان لها، خاصة وأنها مازالت تبحث عن إجابة لسؤالها الملح {.. هل تعد ثقافة المرأة نعمة؟}، إلا أنه على الرغم من ترك الكاتبة السؤال معلقًا فى نهاية عملها، إلا أنها ركزت العمل طوال صفحاته وفصوله للإجابة عن هذا التساؤل.

وهنا تبرز أولى إيجابيات العمل – تقنيًا -. فإذا كان العمل الأدبى من دوره إثارة الأسئلة أكثر من تقديم الأجوبة، فإن الكاتبة رغم تقديمها الأجوبة – بطرق غير مباشرة – فإنها حافظت على ألا تحيل عملها إلى رأى محدد مباشر تفرضه على قارئها، ولكنها حرصت على أن تستخرج الإجابة من القارئ ذاته، بدفعه دفعًا إلى ضرورة المشاركة الفعالة، وتلك أحد عناصر الثورة، المشاركة العامة - أو إن شئنا فى المفاهيم والتعبيرات السياسية – المشاركة الشعبية، غير أن الكاتبة – وأكرر الكاتبة – إلى جانب كونها كاتبة، وإلى جانب ما قدمته من انكسار وانحسار لدورها كامرأة، لا تملك لثورتها إلا أن تكون هادئة ناعمة، على الرغم – أيضًا – من أنها تملك عناصر تلك الثورة، من كونها إنسانة، مثقفة، مطلعة ومنفتحة على العالم خارج حدودها، فى مصر، ولندن، وباريس، وهى المقدمات التى تقود إلى الثورات الاجتماعية، وبدايات ومسيرة قاسم أمين شاهد على ذلك. فهى إذن ثورة سلمية على دونية المرأة فى مجتمع يتنكر للمرأة، ثورة تعلن التمرد الممزوج بالمرارة والإدانة والانتقاد. ولننظر كيف كانت ثورتها.

ليس هى الفتاة التى نعلم أنها أكملت تعليمها الجامعى. وهى الوحيدة التى يمكن القول عنها إنها نجحت فى قصة حبها، بل وزواجها وبعدها أعلنت التزامها بما فرض عليها وعلى الأخريات،

لكن بمحض إرادتها واقتناعها، وكأنها تقول (بيدى لا بيد عمر) وكأنها تعلن أنه بالإرادة والاقتناع يمكن أن نصل إلى ما نبغى، أما بالفرض ودون الإقناع، فإن المقاومة هى النتيجة الحتمية، بل هى ما يؤدى إلى النتائج العكسية:

{.. أعلنت لميس ارتداءها للحجاب بعد عودتها من شهر العسل، باركت صديقاتها هذه الخطوة الجريئة فيما عدا ميشيل التى حاولت أن تثنيها عن قرارها مذكرة إياها برداءة شكل المحجبة وتخلفها عن الموضة...}. ويغيب العجب أو التساؤل إذا ما عرفنا أن أم ميشيل (أو مشاعل) أمريكية الأصل. وهنا تزرع الكاتبة رجاء الصانع دينامية المخفى الذى يفجر الأبعاد التراثية والمعيشية التى تشكل الخلفية التى تدفع البنات الأربع لروايتها الممتعة "بنات الرياض"، حيث تدور الرواية حول أربع فتيات منهن سعوديات الأصل، ومنهن من أمها أمريكية، ومنهن من أمها عربية، وكلهن متزوجات من سعوديين، يبحثن عن الحب:

قمرة مطلقة بعد اكتشاف خيانة زوجها. سديم تركها خطيبها بعد أن سلمته نفسها ليتركها بعد ليلة حميمية معتقدًا أنها فعلت ذلك مع آخرين قبله. مشاعل أو ميشيل التى لم يتمكن حبيبها من الزواج بها بعد أن امتثل لأوامر أمه الرافضة أن يتزوج ولدها من فتاة أمها أمريكية. وأما لميس فهى الفتاة التى توضح الرواية أنها هى الطبيبة التى تلعب دور القائد وسط المجموعة، وهى التى تتخذ قرارها بنفسها، وهى المحرك للسؤال الرئيسى فى الرواية الباحث عن الإجابة ليس فقط لدى الأخريات من بنات المجموعة، وإنما لدى القارئ أيضًا: -

{.. كان السؤال الذى يدور فى ذهن سديم فلا تجد له جوابًا، وتطرحه باستمرار على قمرة وأم نوير فتحتاران معها: هل تعد ثقافة

المرأة – بما فيها العلوم النظرية والتجارب الحياتية العملية – نعمة...}؟!!.

وتبدأ الرواية بالإهداء "إلى عينى الاثنتين أمى وأختى رشا وجميع صديقاتى"

وتبدأ بالإقرار المبدئى المتضمنة له الآية القرآنية من سورة الرعد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، وكأنها تبدأ من البداية فى وضع شرطها الذى تراه أولى - المشاركة والإيجابية - وهو الدعوة إلى التغيير، إلى الثورة على الواقع المر الذى يؤدى إلى تلك المآسى التى تستعرضها الرواية على طول صفحاتها، الثورة على سجن النساء بين جدران التقاليد: -

{.. سأكتب عن صديقاتى عن السجن الذى يمتص أعمار السجينات، عن الزنزانة الكبرى وعن جدرانها السود وعن آلاف آلاف الشهيدات دفن بغير أسماء بمقبرة التقاليد، صديقاتى دمىً ملفوفة بالقطن..}.

فالكاتبة لا تتوارى ولا تتخفى، هى تعلنها صراحة، نريد المشاركة لتحطيم جدران السجن. ثم تستعرض العديد من مظاهر الكبت والتخفى، إلا أنها أبدًا ما انزلقت إلى الإباحى من المواقف، هى تشير فقط، وتنبه إلى ما يدور تحت الغطاء، سعيًا نحو كشف هذا الغطاء ووصولاً إلى الحياة السوية بين الرجل والمرأة، نحو معاملة المرأة التى أصبحت دكتورة، وتتعامل مع الإنترنت، وتسافر إلى دول العالم المتحضر، كيف تستقيم حياتها فى ظل هذه المعاملة التى تتعامل بها فى بلدها؟

ذلك ما أرادته الكاتبة، أو تلك هى رسالتها. فكيف قدمته، أو ما هى التقنية التى صاغت بها رسالتها؟

استفادت الكاتبة من معطيات العصر المتمثل فى استخدامات الإنترنت فى صنع المقابلة بين أحدث تكنولوجيا العصر – وليست

الراوية وحدها وإنما يتضح سعة الاستخدام على مستوى القراء كما توضح الرواية – لتوضح كيف أنه رغم هذا التقدم العلمى وهذه الاستخدامات العصرية، فإن بنات الرياض ما زلن يعشن هذا التخلف ويقعن تحت هذه النظرات والتعاملات البدائية المتخلفة. إضافة إلى أن استخدامها لهذه التقنية لم يأت من حيث الشكل فقط، وإنما وصلت بها إلى تجاوز المراحل التى مرت بها الرواية فى كثير من الأقطار العربية. بمعنى أنه – وكما يتضح من دراساتنا حول الرواية فى مصر، مرت الرواية بعدة مراحل ارتبطت بالمراحل الاجتماعية المختلفة التى واكبت الظرف الاجتماعى، فى البدايات الأولى منذ " زينب " هيكل، ومرورًا بروايات مقاومة الاحتلال الإنجليزى لمصر ومرحلة ما قبل مخاض ١٩٥٢، ومرحلة الستينيات قبل ١٩٦٧ وما بعدها ثم مرحلة الانفتاح الاقتصادى، ثم مرحلة ما بعده ثم مرحلة ما أسميناه فى دراسات الرواية المصرية، رواية القرن الواحد والعشرين.

أقول إن رجاء الصانع قد تجاوزت تلك المراحل – بروايتها الأولى – كل تلك المراحل ووصلت بسمات كتابتها فى " بنات الرياض " إلى أحد عناصر تلك الرواية، والتى تتمثل فى الوصول المباشر إلى مادتها، وحيث جاءت الرواية أحادية الرؤية، أو ذات مستوى واحد للقراءة، فلم تستخدم المواربة، أو الرمز، أو الغموض، فكانت رسالتها واضحة مباشرة، وكأنها تضع قارئها فى مواجهة مباشرة لمشكلاته، وعليه أن يتخذ حيالها التصرف المباشر الصريح أيضًا.

غير أنها – وبحكم أنها روايتها الأولى، لا زالت تعيش مرحلة البدايات من حيث التكنيك الروائى، فالرواية تعتمد التصاعد المنطقى للحدث – والذى تجاوزته الرواية الحديثة الآن – إذ لم يكن هناك أى تشابك بين الخطوط التى ظلت متوازية لتصنع فى

النهاية رؤية كلية، إلا أنها حاولت التغلب على كسر نمطية هذا التصاعد بالتقنية التى استخدمتها فى التدخل المباشر بين الفصول للحديث عن ردود الأفعال – المتخيلة – للقراء مع إيميلاتها، وكأنها تدير حوارًا مباشرًا مع القراء، مما أعطى نوعًا من الحميمية بين السرد وبين القارئ، وأعطى حيوية تكسر التراتب المتتابع للحدث.

كذلك ما استخدمته من حيلة فنية باصطناع الحوار بين الراوية والقراء حول من تكون هى من بين الفتيات الأربع، بينما لم تفصح لهم هى عمن تكون من بينهن، لتؤكد رؤيتها التخيلية للعمل الروائى، فى مواجهة رؤية القارئ العادى للعمل الإبداعى من كونه لابد أنه سيرة ذاتية ورؤية واقعية مجتمعية، وكأن ليس للخيال فيه نصيب. إلا أن استخداماتها لهذه المداخلات جاء عشوائيًّا، فتارة تستخدم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية – وإن كان ذلك مما ساعد على إثارة المشاكل حول العمل ككل، إذا ما نظرنا إلى هذه المداخلات على أنها مقابلة لمتن الرواية ذاته – وتارة تستعمل شعر نزار قبانى – الذى جاء مناسبًا للمرحلة العمرية لبناتها – وتارة أشياء أخرى مما لم يعط رؤية محددة لتلك المداخلات التى استخدمتها الكاتبة المصرية سهير المصادفة فى روايتها " لهو الأبالسة " بنجاح كامل حيث استطاعت أن تصنع منها نصًا موازيًا حين تجميعه يمكن أن يؤتى رؤية مساعدة فى فهم النص الأصلى ولكن بخط مواز.

كما نجحت الكاتبة فى استخدام اللهجة السعودية التى ساعدت على الإلتصاق بالبيئة المحلية والإحساس بالجو المحيط بشخصياتها، والتى لم تكن معها صعوبة كبيرة فى الوصول إليها لغير السعوديين، فساعدت على التمسك بالهوية والشخصية

الخاصة، وأعطت الإحساس بالمكان فساعدت على تكثيف الرغبة بالتغيير في تلك البقعة المحددة، لظروفها المحددة.

وبصفة عامة، فإن "بنات الرياض" رغم ما يمكن أخذه عليها من مآخذ تكنيكية أو تقنية يمكن قبولها في العمل الأول، فإنه يظل لها فضل المساهمة في التغيير الذي هو المبتغى الأول من الفن والإبداع، ويكفي أن نقول إنها بداية واعدة من كاتبة تملك القدرة على الجرأة والتحدي.